مجهود الفرد ومجهود الحكومة

فى الأمة الانجليزية

للأستاذ سلامه موسى

تمتاز الأمة الديمقراطية بميزات كثيرة ربما كان من أهمها شعور الفرد بأنه جزء من الحكومة وأن ما تحرزه الأمة من تقدم أو تأخر يتوقف عليه وعلى غيره من أفراد الشعب كما يتوقف على الحكومة نفسها ، لأن الحكومة الديمقراطية هى الشعب الديمقراطى . وكلاهما لهذا السبب يشعر بالتضامن شعورا قويا ، فالأولى تعتبر سبب وجودها العمل على خدمة الشعب ، والثانى يعد نفسه مسئولا عن جميع حسنات هذه الحكومة أو سيئاتها .

وهذا الشعور بالتضامن يجعل الفرد راعيا مسئولا عن رعيته ، ويبدو هذا الشعور فى الصغائر التافهة التى قلما نلتفت اليها كما يبدو فى المهام العظيمة . يبدو فى الرجل يحمل تذكرة الترام الى سلة المهملات فيلقيها فيها كراهة منه فى طرحها فى الشارع حتى يبقى نظيفا . كما يبدو فى الصبى يتنزه فى الحديقة العامة فلا يطاوع نفسه على أن يقطف زهرة لكى يزين بها صدره لأنه يعرف أنه مسئول عن هذه الحديقة إذ هى حديقة الحكومة أى حديقة الشعب أى حديقته هو . ولكن هذا الشعور نراه أيضا فى المهام العظيمة ، فى رجل مثل اللورد بولدوين يتبرع لخزانة الدولة البريطانية — دون أن يفشى اسمه — بمائة ألف جنيه فى الحرب الماضية لكى تنفق لإحراز النصر ، أو فى رجل آخر — لا يزال مجهول الاسم — يتبرع لمدينة جلاسجو بخمسة عشر ألف جنيه لكى يجمع من ريعها المتراكم كل ثلاث سنوات ألف جنيه تمنح جائزة لمن يخدم هذه المدينة أية خدمة مدنية أو ثقافية .

هذه الأمثلة كثيرة فى الأمم الديمقراطية ، وهى لا تقتصر على التبرعات الضخمة للأعمال الجليلة تتقوى بها ويزداد انتفاع الجمهور منها ، بل هى أيضا تتجه نحو الابتكار فى الخدمة الاجتماعية أو الصحية أو الثقافية . فاذا ما ثبتت أو اتضحت فائدتها اضطرت الحكومة الى معاونتها . وهذا هو الشأن فى كثير من الاصلاحات . وسنقصر حديثنا عن بعض هذه الاصلاحات فى بريطانيا وكيف أن فضل الابتكار كان للفرد حتى اذا تقدم الاصلاح خطوة بل خطوات وهو مجهود فردى بحت ، تقدمت الحكومة بالمعاونة . ولا تزال الأمم الديمقراطية

تعتمد على مجهود الفرد يسبق مجهودها و يعبد لها الطريق ويمهد العقبات الأولى و ينشر الدعوة و يعد لها عقلية الرأى العام . ثم تدخل هى فى النهاية فيكون الانتفاع بقوتها المالية و إدارتها الرشيدة . و يجدر بنا فى مصر أن ندرس هذا الموضوع لا فى بريطانيا وحدها بل فى سائر الأمم الديمقراطية ، لأننا كثيرا ما نميل الى القول بأن الاصلاحات الاجتماعية والصحية والاقتصادية يجب أن تقوم الحكومة بها وحدها ، كأن الفرد لا يكلف شيئا منها . وهذا روح يبعث على التراخى والفتور بين الأفراد كما أنه يحرم الحكومة من الحوافز المحركة الى الاصلاح .

ففى بريطانيا كثير من الاصلاحات وكثير من المؤسسات الحيوية النافعة ابتكرها أفراد الجمهور ودعوا اليها واحتضنوها وأنفقوا عليها ، ولا تزال الى الآن فى أيدى الهيئات المستقلة لا تمد يدها لطلب المساعدة الحكومية .

١ — فمن ذلك مثلا إنشاء المستشفيات ، ففى بريطانيا كان هذا البر السامى الى وقت قريب من مبتكرات الشعب لا شأن للحكومة به . ولا تزال أكبر المستشفيات التى تعالج الفقراء بالمجان أو بالأجور القليلة تديرها هيئات شعبية . وهى تعيش من أوقاف حبست عليها ومن تبرعات الأفراد . وصحيح أن الحكومة البريطانية أنشأت بعض المستشفيات التى تديرها المجالس المحلية ، ولكنها صغيرة الى جنب هذه المستشفيات التى أسسها الشعب والتى لا يزال الشعب ينفق عليها . وإذا قصد أحد الأجانب الى لندن لكى يسأل عن مستشفى كبير يعالج فيه فانه لن يجد للحكومة البريطانية واحدا من هذه المستشفيات و إنما هو يجد العشرات يملكها الجمهور ممثلا فى أبنائه الأبرار الذين تبرعوا بمئات الألوف من الجنيهات لإنشائها أو فى الجمعيات العديدة الحرة التى تديرها وهى تعتمد على البر وتنتظر التبرعات . ولذلك كثيرا ما يجد قراء الصحف أو المجلات الانجليزية نداءات قد نشرت فى صورة إعلان من مستشفى كبير يطلب التبرعات من الأفراد .

فما أولانا نحن المصريين بأن نتعظ بهذا المثل الذى يعلمنا أنه يجب على الشعب أن يذكر فقراءه ومرضاه فيؤسس المستشفيات ويحبس عليها الاوقاف ويثابر على التبرع لبقائها وحفظها وصيانتها .

٢ — وفكرة الملاجئ للأيتام والمحرومين وذوى العاهات من الأطفال والصبيان هى فى الأمة الانجليزية مجهود الفرد قبل أن تكون مجهود الحكومة . فاذا تصفحت أية جريدة أو مجلة انجليزية قبل عيد الميلاد أو فى أشهر الشتاء وجدت نداء من "بيوت بارناردو" تطلب منك شيئا من نقودك أو هداياك أو من ملابس وأطعمة أو من لعب للأطفال . وهذه البيوت تبلغ نحو مائة وسبعين بيتا أو ملجأ تؤوى الطفل الرضيع الى الصبى الذى يقارب السادسة عشرة ، أسسها الدكتور بارناردو سنة ١٨٦٦ ولا تزال حية تنمو وتتكاثر بمجهود الشعب

الذى ينفق عليها نحو نصف مليون جنيه كل عام ، ويدخلها الأعمى والأعرج واليتيم والعاجز ومن له أبوان فقيران . ورخصة الدخول للرضيع أو الطفل أو الصبي هى « الحاجة » لا شيء غيرها . وبعض هذه الملاجئ قد أقيم فى وسط الحدائق الغناء فى أحياء الأغنياء بالمدن الكبيرة ، وبعضها فى قرى أنموذجيـة . وهؤلاء اللاجئون يأكلون وينامون ويتعلمون بالمجان . بل أكثر من ذلك . فان الادارة العامة لهذه الملاجئ قد استطاعت أن ترسل من الشبان والفتيات الذين نشأوا فيها أكثر من ثلاثين ألفـا الى المستعمرات البريطانية حيث ميادين العمل والتكسب أوسع وأربح .

أليس هذا المجهود الفردى الذى أسسه رجل عظيم والذى تعهده الشعب بعد وفاته بمبراته وصدقاته جدير بالتحية والإعجاب بل جدير بالاقتداء ؟

٣ — ثم هناك مجهود ثالث كان الشعب البريطانى وحده يقوم به إلى وقت قريب ، هو انشاء المدارس لتعليم الشعب بالمجان . ونحن نقرن التعليم فى أذهاننا إلى واجبات الحكومة . وهو كذلك الآن فى جميع الأقطار المتمدنة ولكن الشعوب المتمدنة هى التى غرست الأصول وزرعت البذور لهذه الحركة وتسلمتها الحكومات بعد أن زكا الزرع وامتدت فروعه .

ولننظر الآن الى الشعب البريطانى ، وماذا فعل فى سبيل تعليم نفسه قبل أن تقوم الحكومة بتعليمه . وحسبنا أن نذكر التواريخ التـالية لكى نبـين أن مجهود الشعب قد سـبق مجهود الحكومة :

(ا) لم تنشأ وزارة المعارف الانجليزية إلا فى سنة ١٨٩٩ أى أنها إلى الآن لا يزيد عمرها على أربعين سنة .

(ب) لم يصر التعليم الابتدائى اجباريا بحكم القانون فى بريطانيا إلا سنة ١٨٧٠

(ج) لم تؤد الحكومة البريطانية إعانات مالية للمدارس الأهلية إلا سنة ١٨٣٩

هذه الحقائق تدلنا على مجهود الفرد فى نشر التعليم فى بريطانيا ، هذا الفرد الذى يعرف معنى التعاون والاستقلال بإنشاء الجمعيات . فمنذ أكثر من قرنين نجد ما كان يسمى " جمعية ترقية المعـارف المسيحية " وهى تؤسس المدارس فى أنحـاء البلاد ، وتجمع التبرعات للانفاق عليها من المحسنين . ثم نجد أن فردا يدعى جوزيف لانكستر يؤسس سنة ١٨٠١ طائفة من المدارس للفقراء تمتـاز باستقلالها عن المذاهب الدينية . وهناك بالطبع مدارس كبيرة تدعى " المدارس العامة " ينشئها الأغنياء بأوقاف عظيمة . وهذه المدارس الأهلية لاتزال الأنموذج الذى تقتدى به مدارس الحكومة فى بريطـانيا ولا نسمع عن تدخل الحكومة فى التعليم إلا سنة ١٨٣٩ حين قدمت إعانات مالية للمدارس الفقيرة .

وبكلمة أخرى نقول إن مجهود التعليم فى الجزر البريطانية قام على عاتق الأمة قبل أن تتولاه الحكومة .

المستشفيات والملاجئ والمدارس قل أن نذكرها فى مصر دون أن نحمل على الحكومة وتهمها بالتقصير فى إنشائها ، ولكنا ننسى أن مجهود الفرد سبق مجهود الحكومة فى جميع الأقطار المتمدنة التى نذكر مثالا واحدا منها هو بريطانيا . ونستطيع أن نذكر أمثلة كثيرة أخرى ولكنا نتحاماها خشية تشعب البحث . فإن روح الاصلاح والرقى كانت ولا تزال تنبع من الشعب . ويجب أن تكون كذلك فى كل عصر : الشعب يبتكر الاصلاح ويتطوع له ويسير فيه شوطا ثم يحمل الحكومة على متابعته .

ونحن نعرف أن الحكومة البريطانية تتولى فى الوقت الحاضر ألوانا مختلفة من " التأمين الاجتماعى " فهى تؤدى إعانة مالية كبيرة للمتعطلين ، وإعانة أخرى للمسنين ، وأخرى للمرضى ، وغيرها للوالدات قبيل الوضع وبعده . وهذا المجهود يكلف الحكومة بضع مئات الملايين من الجنيهات كل عام . ولكنا ننسى أن الايحاء جاء من الشعب . وأن هذا المجهود كان مجهود الفرد قبل أن يكون مجهود الحكومة . إذ قبل أن تتولى الحكومة هذه الواجبات كان للشعب البريطانى — ولا يزال — مئات الجمعيات التى تسمى " جمعيات الصداقة " وهى جمعيات صغيرة فى الأغلب ولكنها عديدة يندمج فيها الأفراد من رجال ونساء ويؤدون اشتراكات معينة لمواجهة الطوارئ . فإذا رزق العضو مولودا أو إذا مات العضو أو مات أحد ذويه الأقربين أو إذا حدث بمنزله حريق أدت الجمعية إعانة تسد الخسارة أو تخفف الكارثة على قدر الإمكان .

وبعض هذه الجمعيات يؤدى إعانات فى وقت المرض ، وبعضها يقوم بمثل ماتقوم به شركات التأمين ولكن للفقراء . وبعضها يقوم ببناء المنازل . ومع ان القوانين الجديدة التى سنتها الحكومة للتأمين الاجتماعى قد قللت من قيمة هذه الجمعيات فان عددها لم يهبط عما كان عليه . وأموالها فى الوقت الحاضر لاتقل عن ثلثمائة مليون جنيه . بل ان هذه الجمعيات ونقابات العمال التى جاءت بعدها هى التى حملت الحكومة على التفكير فى ضروب التأمين الاجتماعى المختلفة . وهنا نرى أيضا أن مجهود الفرد قد سبق مجهود الحكومة بل كان الباعث عليه . وإلى جنب هذه الجمعيات نستطيع أن نذكر " جمعيات التعاون " التى هى الآن فى بريطانيا مجهود الفرد . والتى لاتقل أموالها عن خمسمائة مليون جنيه تستغلها فى الزراعة والصناعة والتجارة . وجمعية التعاون هى قوة للخير تحول دون الاحتكار والغلاء وتعلم الأعضاء مبادئ كريمة فى الأخلاق تجمع بين الفقراء فتجعلهم أغنياء بالتعاون ينتجون ويشترون ماينتجونه . وهم ينتفعون بالمبدأ القائل بأن ما يعجز عنه الفرد وحده تستطيعه الجماعة .

ان كثيرا من مؤسسات الخير والثقافة والتعليم التي تديرها الحكومة البريطانية في الوقت الحاضر مثل الملجأ أو المدرسة أو المتحف أو المكتبة ، بل ان كثيرا من قوانين البر مثل التأمين من التعطل والشيخوخة والمرض — هذه المؤسسات وهذه القوانين إنما قام بها الأفراد متآزرين جماعات ومتطوعين للخير ، قبل أن تقوم بها الحكومة . فان الشعب هو الذي عبد الطريق للحكومة . وهو الذي حملها على أن تأخذ على عاتقها هذه الخدمات ، وقل أن يموت ثري في بريطانيا العظمى دون أن يحبس على الخيرات مبلغا في وصيته . هذا اللورد نوفيلد صاحب أتومبيلات موريس قد تبرع الى الآن لأعمال البر بما يقرب من خمسة عشر مليونا من الجنيهات . وكان آخر مبراته لجمعية الصليب الأحمر حين تبرع لها بمائة ألف جنيه واشترط أن يتبرع الجمهور بمثل هذا المبلغ . وهو بهذا العمل يربي الجمهور على البر وينمي في نفسه الحمية الوطنية ويدربه على الاحسان .

ولعل الاستعمار أبعد الأشياء في أذهاننا عن أن يكون موضوع تفكير الفرد . مع أننا إذا قرأنا التاريخ نجد أن الامبراطورية البريطانية قد وضع أسسها بل شيد بعض جدرانها أفراد أو هيئات مستقلة عن الحكومة. وهنا تثب الى الذهن ذكرى "سسل رودس" في أفريقيا الجنوبية. وذكرى "شركة الهند الشرقية" في الهند .وقد نجحد نحن الاستعمار ولكنا نضرب هذا المثل لكي نبرهن به على أن الأفراد في أمة ديمقراطية متقدمة مثل بريطانيا يقومون بالضخم من الأعمال التي اعتدنا أن نحسبها من واجبات الحكومات وحدها .

وإذا كانت الديمقراطية تعني أن الشعب يحكم نفسه . فقد وجب أن يشعر كل فرد بتبعاته نحو حركة الرقي الشعبي وأن يكون لحياته أثر محسوس في التوجيه الاصلاحي العام .فاذا كان على الحكومة أن تنشئ المدرسة أو المتحف أو المكتبة المجانية ، فان شيئا من هذا الواجب يقع أيضا على كاهل كل فرد . وصحيح أن الفرد قد يعجز عن انشاء واحدة من هذه المؤسسات ولكنه لن يعجز عن أن يشترك في حركة التنوير العام الذي تقصد الى تحقيقه هذه المؤسسات . فان المستشفيات في بريطانيا مثلا ترد اليها آلاف المجلات والكتب التي يكون أصحابها قد فرغوا من قراءتها ، فهم يرسلونها الى المرضى ليتسلوا ويستنيروا .

ونحن نسمع من وقت لآخر عن الاصلاحات التي دخلت السجون وأنارت بعض الظلمة التي تكتنف هؤلاء الأشقياء .ولكنا ننسى أن هذه الاصلاحات تعود الى امرأة انجليزية هي "اليزابث فراي" التي قضت عمرها في الدعوة الى هذا الاصلاح تزور السجون وتصلح بيئاتها ثم تتعهد أولئك الذين قضوا مدة الأحكام التي قضي بها عليهم فتبحث لهم عن أعمال يتكسبون منها حتى لا يعودوا الى الاجرام. وعاشت هذه السيدة تضحي بوقتها وما لها من أجل هذا الاصلاح حتى حملت الحكومة على الأخذ بالكثير منه وبالاستمرار فيه .

ان الفرد فى بريطانيا — ممثلا بشخصه أو بالجماعات المستقلة — هو الذى كافح المرض والأميـة والجريمة والتيتم . وهو الذى فتح الطريق للتأمين الاجتماعى من التعطل والمرض والشيخوخة . وهو الذى أوجد حركات الاصلاح المختلفة . ولم تكن الحكومة هى المرشدة أوالموحية فى كل هذه الحركات وإنما كانت تابعة مسترشدة تسير فى طريق معبد قدمهده لها الفرد . وهذا هو ما يجب أن يكون فى كل أمة ديمقراطية تفهم حقيقة معنى الديمقراطية ما

سلامه موسى

نصيحة خبير مجرب

رأى أحد أهل الرأى من العرب صديقا له فى صحبة رجل آخر فقال يحذره :

احذر فلانا فانه كثير السؤال، حسن البحث ، لطيف الاستدراج، يطبق أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهر له المخافة فيرى أنك قـد تحرزت ، واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدّة الحذر ، وتحفظ منه تحفظ الخائف ، فان البحث يظهر الباطن الخفىّ، ويبدى الكامن المستكن .